

الجانب التاريخي في فكر الشيخ أبو القاسم سعد الله
من خلال مقالاته في مجلتي الأصالة والثقافة.

~~~~~ أ. عبد القادر بكار \*

مقدمة: عرفت الجزائر خلال مختلف مراحل تاريخها حركة واسعة لتدوين التاريخ، خاصة مرحلة ما بعد الاستقلال والتي أصبح فيها للتاريخ مكانة متميزة، باعتباره يعبر عن ثقافة الشعب الجزائري والحامي لهويته الوطنية التي رفضت الانسلاخ عن ماضيها، والاندماج في تاريخ الآخر (الأوربي الاستعماري)، فبرز مؤرخون تعددت توجهاتهم بتعدد ثقافتهم، عكفوا خلال هذه الفترة التاريخية الحرجة على تدوين تاريخ بلادهم لأسباب شتى، فظهرت كتابات كثيرة في هذا المجال، وإن كانت تتفاوت في الأهمية التاريخية والقيمة العلمية، ولكنها عبرت عن تصورات كتابها وأرائهم، وهي ولا ريب مصادر محلية لا يمكن الاستغناء عنها.

لقد تعرضت الكتابات التاريخية الجزائرية لحمولات من التشويه والتزيف والمسخ من قبل الكتاب الأجانب خاصة الفرنسيين، وحتى من بعض الأقلام الجزائرية التي اهتم هؤلاء المؤرخين الجزائريين بالتقصير، وبالرؤية الضيقة والذاتية، وحتى غياب المنهجية في كتاباتهم التاريخية.

من الملاحظ أن كتابات الفرنسيين الأوائل (فترة الاحتلال الفرنسي)، والذين أرخوا للجزائر هم في الغالب ضباط عسكريين وحكام مدنيين إداريين، جاءت كتاباتهم في شكل مذكرات شخصية وتقارير رسمية أمثال شارل فيرو وأرنو ولويس رين، والتي نشرت أغلب أعمالهم في النشريات الرسمية التي كانت تصدرها الإدارة الفرنسية في الجزائر، استقوا مادتهم التاريخية في غالبيتها من كتابات محلية، وإن كان الكتاب الفرنسيين لا يذكرون أحيانا أسماء الكتاب الجزائريين الذين أخذوا عنهم<sup>(1)</sup>.

ومن هذا المنطلق، فإن موضوع الكتابة التاريخية الجزائرية يكتسي أهمية بالغة، إذ أنه يشكل جزءا هاما من التاريخ الحضاري والثقافي للأمة الجزائرية، ويعد أساس الهوية الوطنية للشعب الجزائري، كما أن واقع الدراسات التاريخية بالجزائر المستقلة يفرض على الباحثين استعراض ما أنجز

\* - أستاذ مساعد أ في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - جامعة ابن خلدون - تيارت.

في مجال التاريخ، من دراسات وبحوث قبل وبعد الاستقلال، لتحديد توجهاتها والتعرف على خصائصها، للتطرق لواقع الدراسات التاريخية الحالي بالجزائر. ولذا ارتأيت من الواجب المساهمة بهذا المقال لتسليط الضوء على هذا الجانب الهام من إرث تاريخنا الوطني، وذلك بتقديم لمؤرخ جزائري مخضرم، كان له باع كبير في كتابة تاريخ الجزائر المعاصرة، وسطع نجمه في سماء الحركة الثقافية عامة والكتابة التاريخية الوطنية على وجه الخصوص، والذي بشهادة العديد من المؤرخين المحليين والأجانب، استحق لقب شيخ المؤرخين الجزائريين، إنه الشيخ أبو القاسم سعد الله.

لن أنطرق الى سيرته الذاتية من خلال ما كتب عنه في مختلف المناسبات، فمن هذا الجانب لم يترك لنا الشيخ مجالا للبحث فيه، إذ كفانا عبء النصب في البحث عنها ما نشره عبر موقعه، فيقول: "أبو القاسم سعد الله من مواليد عام 1930م بضواحي قمار بوادي سوف (الجزائر)، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين...، وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف ومؤلفات، وترجمات..."<sup>(2)</sup>.

تنوعت كتاباته ومؤلفاته بين الدراسة والتحقيق والترجمة والبحوث، سواء في التاريخ أو في الأدب، ومن بين أشهر كتاباته موسوعته الثقافية تحت عنوان "تاريخ الجزائر الثقافي" في تسعة أجزاء، وكتاب "الحركة الوطنية الجزائرية" في ثلاثة أجزاء، وكتاب "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر" في أربعة أجزاء، وكلها عن دار الغرب الإسلامي ببيروت. كما اهتم بتحقيق العديد من المصادر التاريخية والأدبية ومنها كتاب "منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية"، وكتاب "حكاية العشاق في الحب والاشتياق"، وكان للترجمة نصيب كبير في كتاباته، خاصة من اللغة الإنجليزية الى اللغة العربية، ويأتي في مقدمة ذلك كتاب "الجزائر في العهد العثماني"، من تأليف جون ب. وولف، وكتاب "حياة الأمير عبد القادر" من تأليف هنري تشرشل، ناهيك عن المحاضرات في المؤتمرات والملتقيات، والمقالات في المجلات والجرائد والتي تعد بالعشرات، مع الملاحظة أنها كلها تصب في إشكالية الكتابة التاريخية ومناهج البحث العلمي. وهذا ليس غريبا على مؤرخ جليل مثل أبي القاسم سعد الله، أن يغزر إنتاجه، وأن تكون وفرة هذا الإنتاج على الأخص في التاريخ، وهو الأديب أيضا. ولقد ساعده في ذلك سعة علمه، وتمكنه من عدة علوم، كما مكنته لغاته المتعددة من أن يطلع إطلاعا واسعا على أخبار الأمم<sup>(3)</sup>.

إن جميع من كتب حول شخصية أبي القاسم سعد الله ومؤرخته يتفقون على القدر الكبير لإسهاماته التاريخية والأدبية، وتنوعها وقيمتها العلمية في مهنة التاريخ وصناعته. كما اكتسب اعترافا واحتراما كبيرين من أقرانه من مؤرخي العالم العربي والإسلامي الكبار، سواء منهم من تخصص في الدراسات التاريخية، أو الادبية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، محمد صالح الجابري والمنجي الكعك من تونس، ومحمد المنوني ومحمد عابد الجابري من المغرب الأقصى، ونسيب نشاوي وعبد السلام العجيلي من سوريا. وبهذه الصورة ظل الشيخ أبو القاسم سعد الله بلا توقف جذوة فكر باحث حي، وذهنه مؤرخ متوقدة الى وقت رحيله شهر ديسمبر العام 2013م.

وسأتناول في هذا المقال الجانب التاريخي في الفكر التصوري للتاريخ الجزائري عند أبي القاسم سعد الله، مركزا على الجانب المنهجي في طرح القضايا الفكرية والثقافية والحضارية، وذلك من خلال مقالاته في مجلتي الأصالة والثقافة.

ومن بين دوافع اختياري لهذا الجانب في كتابات الشيخ أبي القاسم سعد الله، وتركيزي على مجلتي الأصالة والثقافة، المكانة العلمية المرموقة التي اكتسبها بين أبناء جيله من المؤرخين الجزائريين، في أنه ظل يقدم لقراء المجلتين ما قدر عليه من قبسات مشعة من الفكر التاريخي، والمادة الأدبية العلمية المتلاحقة، وتسنى له مساهمة الكتابة بمقالاته في المجلتين، والتي بلغت أكثر من ثلاثين مقالا جمعت الجانبين التاريخي والأدبي، في ظل تواجد كوكبة من المؤرخين والمفكرين البارزين الآخرين، نذكر منهم مولود قاسم نايت بلقاسم وأحمد توفيق المدني وعبد الرحمن الجيلالي وناصر الدين سعيد وني وغيرهم كثير ممن تداولوا على الكتابة على منبر المجلتين. بالإضافة الى رغبتني في الخروج عن دائرة الموسوعات (الحركة الوطنية الجزائرية- تاريخ الجزائر الثقافي) التي أنتجها الشيخ أبو القاسم سعد الله، والتي لطالما تعرض لها الكتاب، كما أنني أود الاتجاه الى المواضيع التي تناولها الشيخ سعد الله بالشرح والتدقيق عبر هذه المجلات، التي تبقي بعيدة عن أنظار الباحثين، ومجهولة لدى السواد الاعظم من الطلبة عموما.

صحيح أن مقالات الشيخ أبو القاسم سعد الله في المجلتين المذكورتين لا تغطي كل الجوانب المنهجية في كتاباته، وبالتالي تولدت لدي رغبة المساهمة ولو بالقليل في نفث الغبار عن التراث

التاريخي للكتاب الجزائريين من خلال هذه المجالات، والتي كانت تمثل منبرا للعديد، إن لم أقل لكل الاقلام الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال.

وعليه سأحاول في هذا المقال الإجابة عن جملة من التساؤلات، ومنها: ما هي طبيعة المواضيع التي تناولها الشيخ سعد الله؟، وما هو المنهج التاريخي المعتمد؟، وإلى أي درجة ساهم في كتابة وتدوين التاريخ الوطني الجزائري من خلال مقالاته في مجلتي الأصالة والثقافة؟.

طبيعة الكتابة التاريخية عند الشيخ أبي القاسم سعد الله: تمثل مرحلة ما بعد الاستقلال مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، ارتفعت فيها كثير من الأصوات، داعية لإعادة كتابة التاريخ الجزائري، ووضع لجنة لتأسيس مدرسة تاريخية، بعيدة كل البعد عن مخلفات الإرث الفرنسي الذي خلفته الفترة الاستعمارية بكل تداعياتها على مختلف شؤون الحياة بالجزائر، ولا سيما الجوانب الثقافية والفكرية، كما أنه بدأ ينتشر في صفوف الكتاب والمؤرخين، وعلى رأسهم الشيخ أبو القاسم سعد الله، شعور وطني يحتم عليهم ضرورة إرساء قواعد وركائز أساسية لتدوين وكتابة التاريخ الوطني بأقلام جزائرية.

لقد دارت المواضيع التي تطرق إليها الشيخ أبو القاسم سعد الله في مجلتي الأصالة والثقافة حول تاريخ الجزائر في العصر الحديث خاصة، وما ارتبطت به من أحداث محلية (وطنية- مغاربية)، وعالمية (عربية- إسلامية- وأوربية).

وبذلك يمكنني تقسيم طبيعة مقالاته إلى ثلاث محاور رئيسية، وهي:

- المحور الأول: وهو الأساس والغالب في مقالاته، خصّصه لدراسة شخصيات جزائرية تاريخية وأدبية، فكرية وعسكرية، ومنها على سبيل المثال عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته، وأثار ابن العنابي (كتاب السعي الحمود في نظام الجنود)، والشاعر محمد العيد آل خليفة-دراسات في الشعر الجزائري، كما تطرق في أعداد أخرى إلى ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب الأقصى من خلال وثائق جديدة، وعلاقة الشاذلي القسنطيني بالأمير عبد القادر خلال مرحلة سجنه بفرنسا.

- أما المحور الثاني: فقد خصّصه لمواضيع تاريخية وأدبية عامة، حاول من خلال بعضها ربط العلاقة التاريخية الأدبية مثلما جاء في مقال بعنوان "الأدب والثورة التكنولوجية"، كما وظف الأدب

والشعر في المجال التاريخي مثلما جاء في مقال بعنوان "من حضارة الشعر الى حضارة العلم"، ومقال آخر بعنوان "الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر".

- اخور الثالث: خصّصه لمقالات تاريخية خالصة، استعرض من خلالها حلقة من حلقات تاريخ الجزائر في الفترتين الحديثة والمعاصرة، ومنها مقال بعنوان "مدينة الجزائر في كتاب إنجلزي قديم 1731م"، ومقال بعنوان "الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين".

إن الشيخ أبا القاسم سعد الله مؤرخ محترف، وأديب مهني بآتم معنى الكلمة، شأنه في ذلك شأن المؤرخ والأديب السوري مصطفى شاعر الذي لقبه النقاد والباحثون بأديب المؤرخين ومؤرخ الأدباء<sup>(4)</sup>. ولا شك أن الشيخ سعد الله يستحق ذلك بمجدارة، فهو أديب مُجيد، ومؤرخ رائد للأدب، وصاحب الجهود الجليلة في كتابة التاريخ الثقافي الجزائري، والحركة الوطنية الجزائرية، محققا في ذلك نقلة نوعية من تدوين الحوادث التاريخية الى علم التاريخ. وإذا أردنا من ذلك التزام الباحث باستخدامات روح النص، وأصول صناعته وتوظيفه، فهو ينتمي الى قائمة مؤرخي المدرسة الوطنية الجزائرية، التي اسس لها مجموعة من الكتاب الجزائريين. وكما يقول استاذ التاريخ والعلاقات الدولية إدوار كار: "أن التاريخ ليس من صنع أحد باستثناء المؤرخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه، فالتاريخ هو تجربة المؤرخ"<sup>(5)</sup>.

انطلاقا من هذه القاعدة، يرى أبو القاسم سعد الله أن التاريخ لا تتم دراسته إلا بعين الحاضر، بالرغم من أن موضوعاته دراسة للماضي، أي أن عملية الانتقاء هذه لا يمكن فصلها عما يريد المؤرخ جعله ناطقا بالحاضر. كما يجزم استحالة أن يكون المؤرخ حياديا، لأنه جزء من الحاضر، حتى وإن كانت الوقائع تنتمي الى الماضي، والتاريخ هو العملية المستمرة من التفاعل بين المؤرخ ووقائعه<sup>(6)</sup>.

إن طريقة الكتابة عند الشيخ أبي القاسم سعد الله سهلة وبسيطة، يلتزم فيها بمبادئ منهجية البحث العلمي التاريخي، حيث يقسم مقالاته الى مقدمة ومتن وخاتمة، وينطلق من العنوان الذي يحدد من خلاله أبعاد الحدث التاريخي، وأخذ فكرة إجمالية عن نوعية ومواصفات الموضوع<sup>(7)</sup>.

هذا الأسلوب يظهر في كل مقالاته، يضع مقدمة شاملة وواضحة حتى يضع القارئ في صلب الموضوع، ويجعله يتابعه خطوة بعد خطوة؛ ففي المقال الذي خصّصه لـ "عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته - لسان المقال -" يتناول فيه مخطوطة ابن حمادوش ومحتواها، بالإضافة الى المنهج

الذي سار عليه، وأهمية المخطوطة التي تعتبر على حد قوله جزء هاماً من تراث الجزائر العربي الإسلامي.

ففي المقدمة التي تبدو طويلة، يستعرض فيها حياة ابن حمادوش بالتفصيل من حيث النشأة والمولد، وأحداث عصره، وثقافته على يد شيوخ بلاده، وعلماء المغرب الأقصى وتونس، ومؤلفاته، والأهم من ذلك أنه يطرح الآراء المختلفة لكتاب أجنب ومحليين الذين ترجحوا لابن حمادوش، مرجحاً الرأي الأصوب، وفي ذلك يقول: "والظاهر أن أول من أكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان ليكليرك الذي ترجم له كتابه "كشف الرموز" إلى الفرنسية. كما أشار في نهاية الترجمة إلى كتاب آخر لابن حمادوش وهو "تعديل المزاج" ولكن الدكتور ليكليرك لم يطلع على رحلة ابن حمادوش، ولذلك كان حديثه عن حياة المؤلف مختصراً مبنيّاً على الظن لا على اليقين. وفي سنة 1886م ذكر المؤلف الإسباني قونزاليز في كتابه "مشاهير مسلمي مدينة الجزائر" حوالي ثلاثة أسطر عن ابن حمادوش ضمنها تاريخ ميلاده الصحيح، وهو تاريخ لم يرد إلا في "لسان المقال"، وعندما أصدر أبو القاسم الحفناوي كتابه أورد كلام قونزاليز عن حياة ابن حمادوش...، مما جعلنا نرجح أن قونزاليز هو الذي أطلع على الرحلة، وفي هذا يكون ميلاد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش سنة 1107هـ/1695م في مدينة الجزائر على الأرجح، ومن ثمة نسبته إليها الجزائري"<sup>(8)</sup>.

كما نجده في المقال الذي عنوانه بـ "مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر" يذكر وبالتفصيل حياة المشرفي، انطلاقاً من مولده، مروراً بالأوضاع التي عايشتها المنطقة الغربية من الوطن الجزائري عامة ومدينة معسكر على وجه الخصوص، بالإضافة إلى موقفه من الحملة الفرنسية على الجزائر، وفي ذلك يذكر ما يلي: "فهو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي، جده هو عبد القادر المشرفي شيخ أبي راس الناصر المعسكري، وصاحب الكتيب المسمى "بهجة الناظر..."، ولد في غريس خارج مدينة معسكر، وشب هناك...، وقد هاجر العربي المشرفي إلى المغرب الأقصى مع المهاجرين الجزائريين الذين اختاروا المنفى على الإقامة تحت حكم الأعداء..."<sup>(9)</sup>.

هذا وإن كان ذلك أسلوباً ومنهجاً الشيخ أبي القاسم سعد الله في كتابة مقالاته التي دوّنها عبر مجلتي الأصالة والثقافة، فإنه شدّ في بعض المقالات الأخرى، والتي وردت دون مقدمات، كالمقال الذي خصصه للعلاقة بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر<sup>(10)</sup>.

للعلم، أن بعض المواضيع التي طرقتها الشيخ أبو القاسم سعد الله في مقالاته طبعت بالتوجه الديني تارة، الذي يأخذ بمفهوم العناية الإلهية المتحكمة في مصير الإنسان، والموجهة لشؤون البشر، حيث يربط الجانب التاريخي بالنظرة الدينية على طريقة المنهج الحولي الذي أسس له المؤرخ الطبري<sup>(11)</sup>، ويظهر ذلك في المقال الذي خصصه لابن العنابي وآثاره، مركزاً على جملة من الفتاوى التي أصدرها ابن العنابي ومنها: موضوع التجديد في النظم الإسلامية، أو تقليد المسلمين للأوربيين في مبتكراتهم الحديثة، ومسألة التقليد والابتكار. وقد ناقش ابن العنابي كل ذلك في ضوء الشريعة الإسلامية من جهة، وفي ضوء حاجة المجتمع الإسلامي إلى التطور من جهة أخرى، وهي الأمور التي يؤيد فيها أبو القاسم سعد الله ابن العنابي تأييداً تاماً، خاصة وأن كتاب "السعي المحمود في نظام الجنود" الذي حوى الفتاوى ألف في زمن (الربع الأول من القرن التاسع عشر) شكل منعرجاً خطيراً في لقاء الحضارتين الإسلامية والأوربية، وأن للكتاب قيمة تاريخية وحضارية، أضف إلى ذلك أنها تتعلق بمسائل جديرة بالدرس اليوم على حد قول أبي القاسم سعد الله<sup>(12)</sup>.

إذن من القضايا الدينية التي تناولها بترعة تاريخية، وحاول تفسيرها بالنسبة لوسطها الاجتماعي الذي ظهرت فيه، هي الحملة الكبيرة التي قادها ابن العنابي على من يسميهم بالزنادقة تارة، وال دراويش تارة أخرى؛ فقد اعتبر عمل هؤلاء من أعظم ما أصاب الإسلام وأهله من الفساد والشر<sup>(13)</sup>. من هذا الموقف لابن العنابي، نجد أن أبا القاسم سعد الله ينتصر لقاعدة استحالة أن يكون المؤرخ حيادياً، لا يحفي موقفه من الأحداث التي أفتى فيها ابن العنابي (وقوف الدراويش في طريق تقدم الإسلام وأهله)، بل يناصر ما يراه حقاً، ويدعو لما يراه صحيحاً، وهو الثورة على أهل الخرافة والشعوذة والطرقية، والمتاجرة بالدين، وهنا يورد رأي عبد الكريم الفكون صاحب كتاب "منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية"، الذي ألفه قبل ابن العنابي بأكثر من قرن، وخصص فيه فصلاً كاملاً لمن ادعى الولاية من الدجاجلة الكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين<sup>(14)</sup>.

أما الطابع الثاني الذي يظهر في مقالات الشيخ أبي القاسم سعد الله فهو الطابع الأدبي، حيث يتناول قصيدة محمد بن ميمون الذي يشيد فيها بالدور الكبير للحكام العثمانيين بالجزائر (عهد الداوي عبيد باشا 1724-1732م)، الذين تصدوا لبعض ثورات القبائل العربية في الغرب الجزائري في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ضد السلطة العثمانية<sup>(15)</sup>.

وبغض النظر عن الأحداث التي قيلت فيها المناسبة، فإن أبا القاسم سعد الله أورد القصيدة للدلالة على براعة محمد بن ميمون في الوصف الأدبي الذي اشتهر به هو وطائفة من أدباء الجزائر في القرن الثامن عشر كابن عمار وابن سحنون. والأهم من ذلك أن للقصيدة قيمة تاريخية<sup>(16)</sup>، فهي تكشف عدم الاستقرار السياسي في الناحية الغربية للوطن الجزائري خلال فترة الداي عبيد باشا، وتصف بالتفصيل العادات الاجتماعية عند وقوع مثل هذا الانتصار، كما أنها تبين انتصار ابن ميمون الجزائري للسلطة العثمانية على حساب القبائل، وهذا ما دفع أبو القاسم سعد الله إلى تصنيف الشاعر محمد بن ميمون من شعراء البلاط غير الرسميين، فهو بشعره كان يتقرب من السلطة ولكن بلا تذلل<sup>(17)</sup>.

وعليه، فإن الذي يهمنا (وهنا أضف رأيي إلى رأي شيخنا أبو القاسم سعد الله)، هو اكتشاف الوثيقة وأهميتها الأدبية والتاريخية بالنسبة لتراث الجزائر العربي، ونعتقد إن لم نجزم، أن الشعر في ظل الحكم العثماني في الجزائر، لم يكن شعر مدائح وغزل ومتون وأراجيز جافة...<sup>(18)</sup>.

منهجية الكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله: إن أساس الكتابة التاريخية هو السؤال المنهجي، حيث يوظفه الشيخ أبو القاسم سعد الله أحسن توظيف، ويكتب إجابات من واقع الحديث للأسئلة التي يثيرها، وأكثر أهمية فإنه يحسن عملية اختيار السؤال، وهو ما يميز المؤرخ الناجح عن غيره من المؤرخين، وفي ذلك يستنكر موقف محمد بن ميمون من وقوفه إلى جانب السلطة العثمانية ضد القبائل العربية الجزائرية، رغم اعترافه بقدرة ابن ميمون الشعرية قائلا: ان القصيدة تمتاز بقوة، وأن بحرهما ونغمتهما وجوها النفسية وقافيتها واختيار ألفاظها كلها تلائم المناسبة التي قيلت فيها. غير أن الغرض الذي عبرت عنه قد يكون محل خلاف، ولا ندرى إن كان يعرف شر هذه السلطة في جمع المال وشراء الاستقرار بأي ثمن، أو أنه لم يكن يعرف من ذلك سوى الجهاد والهدوء والطاعة للحكام. كما أنه يستنكر من جهة أخرى ما نسب إلى العثمانيين من الشرف الهاشمي بدون حق، ولكنه يؤيد ابن ميمون ما وصف به العثمانيين من صفة الجهاد، وهو وصف صادق إذا أخذنا في الاعتبار استرداد وهران ومواجهة الإسبان المستمرة<sup>(19)</sup>.

لقد أتقن الشيخ أبو القاسم سعد الله كيفية استخدام المصادر إتقاناً كبيراً، وعرف صناعة ممارسة النقد عليها، كما أتقن كذلك تفكيك النصوص وكيفية توظيفها في العمل الكتابي، وهو ما يوظفه في مقال بعنوان "دفتر محكمة المدينة أواخر العهد العثماني (1821-1839م)"، حيث

يستقصي الماضي من خلال حوادث التاريخ، ومن خلال معرفته للعديد من الحقائق، إلا أنه لا يتوانى في الحكم مسبقاً، على أن النتائج بلا أدلة مهما كانت منطقية ومتماسكة تظل غير ذات قيمة<sup>(20)</sup>.

ففي هذا المقال، يطرح فيه مرحلة من مراحل التاريخ الجزائري ببايلك التيطري أواخر العهد العثماني من خلال دفتر هام وجد بمحكمة المدينة، وهي مقر البايك، والحديث هنا عن المرحلة الانتقالية بين آخر عهد للعثمانيين وبداية المقاومة الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر.

إن الشيخ أبا القاسم سعد الله لا يقدم النتائج دون أدلة، يستعرض الأحداث من وحي المصادر المختلفة والمتنوعة، ومما جاء في مقاله ما يلي: "ونظراً للصلة بين آخر عهد للعثمانيين وعهد الأمير في المدينة، فقد جئنا بالأخبار الواردة في الدفتر عن التحولات التي طرأت على المدينة في الفترة الانتقالية أيضاً، مثل تعيين قضاة الأمير وتبديل الموازين، وانتشار العملة الجديدة...، وكانت المدينة مركزاً حضرياً هاماً تضم عائلات عريقة، بالإضافة إلى عائلات أندلسية وأخرى تركية، ويظهر من أسماء المطلقين والمتزوجين أن بعض الجنود الأتراك كانوا يسكنونها أيضاً. كما تُظهر الوثائق التي سجلها الدفتر أن المدينة كانت مركزاً لعدد من أصحاب الحرف...، ثم يواصل حديثه ذاكراً الأحداث التالية: فبعد نهاية مقاومة الباي بومزراق، حاول الفرنسيون بقيادة كلوزيل شن حملة على المدينة في 17 نوفمبر 1830م، وهي المعروفة بالحملة الأولى، أما الحملة الثانية فقد وقعت في 25 جوان 1831م، أما جيش الأمير فقد دخل المدينة سنة 1837م، وقد جعل الأمير المدينة خلافة من خلائفه، وعين على رأسها في البداية أخاه مصطفى بن محي الدين، ثم عزله وعين بدله الشيخ محمد البركاني. ولكن أبو القاسم سعد الله يقطع الشك باليقين حينما يخلص إلى قوله: "ومهما يكن من أمر فإن دفتر محكمة المدينة قد عكس هذه التحولات، فوجدنا فيه أسماء قضاة العهد العثماني وأسماء قضاة العهد الأميري، وحوادث عن حياة الناس في العهد الأول وعن حياتهم في العهد الثاني"<sup>(21)</sup>.

وفي نفس السياق، نجد أبو القاسم سعد الله يتحفظ من بعض المعلومات الواردة في الدفتر، كقوله إن المفتي أبو القاسم الغربي الذي كان قد تولى الفتيا سنة 1759م، ليس هو المفتي الذي أشار إليه دفتر المحكمة، وهو مفتي آخر اسمه أبو القاسم أيضاً، وذلك سنة 1825م، وذلك لوجود فارق زمني طويل بينهما، كما أنه يشير إلى وثيقة بتاريخ 1829م تثبت أن المفتي في المدينة هو الشيخ محمد

البصري، فقد نصّ فيها على ما يلي: "الحمد لله، ما وقع بحضرتنا هو كذلك، وأنا عبده محمد بن أحمد البصري، المفتي يومئذ". لكن أبا القاسم سعد الله يذكر أن الوثيقة المذكورة هي شهادة على طلاق شاب يدعى الأخضر بن العربي الخلفي، ومن ثمة يتضح أن أسماء المفتين بالمدينة غير واردة في الدفتر بصفة منتظمة مثل أسماء القضاة، إذ من الواضح أن هناك ثغرات زمنية لم يسدها الدفتر<sup>(22)</sup>.

تناول الشيخ أبو القاسم سعد الله في دراساته التاريخية جملة من المصادر التاريخية المحلية، احتل فيها التاريخ الوطني الجزائري مكانة بارزة، وسأكتفي بنموذج واحد فقط للدلالة على ذلك، وهو بدون شك صورة لباقي المقالات التي تناولها أبو القاسم سعد الله في مجلتي محور الدراسة.

ففي مقال رحلة عبد الرزاق بن حمادوش المسماة "لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال"، والتي يعتبرها من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي، والتي لاغنى عنها لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية في مجتمع الجزائر والمغرب الأقصى خلال تلك الفترة، حيث تزداد قيمة هذه الرحلة عند الباحثين لاعتبارات كثيرة منها أنها المصدر الوحيد عن حياة ابن حمادوش، كما أنها تضم مادة كبيرة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية عن المجتمعين الجزائري والمغربي خلال القرن الثامن عشر، فهي جزء هام من تراث الجزائر العربي الإسلامي الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب أو شككوا في قيمته. وعليه فهي رحلة ذات ميدان واسع تنافس فيها التاريخ والأدب (هي رحلة خالية من الصنعة الأدبية التي لجأ إليها ابن عمار مثلاً)، وفنون وعلوم أخرى، ولكنها في بعض أشكالها فن تاريخي خالص. يستنتج أبو القاسم سعد الله أن ابن حمادوش في رحلته هذه، كان بعيداً عن التصنع، ولم يبالغ بمبالغة ابن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجمالي"، ولم يتأنق تأنق ابن ميمون الجزائري في كتابه "التحفة المرضية"، ولم يسف إسفاف ابن المفتي في كتابه "التقييدات"، والأهم من ذلك كله أنها رحلة مغربية لا مشرقية، وكلهم كانوا معاصرين لابن حمادوش<sup>(23)</sup> (24).

تجدر الإشارة إلى أن أهم المصادر التي تناولها الشيخ أبو القاسم سعد الله في مجلتي الأصالة والثقافة هي:

كتاب الكامل في تاريخ الجزائر لجوزيف مورقان (مدينة الجزائر في كتاب انجليزي قديم)، مجلة الأصالة، العدد: 08.

كتاب السعي المحمود في نظام الجنود للمفتي الجزائري- المصري لابن العنابي، مجلة الأصالة، العدد: 31.

رحلة "لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال" لعبد الرزاق بن حمادوش، مجلة الأصالة، العدد: 38.

مجموعة فتاوى من آثار ابن العنابي، نقلها عنه علماء الجزائر وعلماء تونس وعلماء مصر، يذكر منهم الشيخ محمد بيرم الرابع، مجلة الأصالة، العدد: 39-40.

مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد: 75.

دفتر محكمة المدينة أواخر العهد العثماني (1821-1839)، مجلة الثقافة، العدد: 81.

إن هذه المصادر التاريخية المتنوعة التي تناولها الشيخ أبو القاسم سعد الله في مقالاته هي في الحقيقة شهادات، حاول من خلالها المؤرخ البحث عن ماهية الحقيقة التاريخية، وهل هي الواقعة أو الحدث التاريخي المحدود في زمان ومكان معينين؟ ومتى أصبحت الواقعة حقيقة تاريخية مهمة وجب على المؤرخ إدراجها في الكتابات التاريخية؟<sup>(25)</sup>.

لقد توصل الشيخ أبو القاسم سعد الله من خلال طرحه لهذه الشهادات المختلفة والمتنوعة الاتجاهات إلى أنه ليس كل شيء تاريخيا صحيحا، وهو الرأي نفسه الذي توصل إليه الكاتب كاروبر من قبل، والذي يعترض على الاتجاه السائد بشأن تأويل التاريخ، واعتبر أن التاريخ لا يفسر كل شيء، بل هو عنصر من عناصر التأثير<sup>(26)</sup>.

وانطلاقا مما أوردناه نخلص إلى الملاحظات التالية في الكتابة التاريخية عند الشيخ أبا القاسم سعد الله، وهي:

- استخدامه لأسلوب بسيط وسهل اهتم فيه بإبراز المادة التاريخية بعبارات قصيرة، توضح المعنى المقصود، والتزامه بمنهج واحد، وبالرغم من تعدد صور الكتابة التاريخية، يبقى على صورة واحدة متبعا في تنظيمه الترتيب الزمني الذي يقوم على تجميع ما اختلف من الحوادث والربط بينهما.
- نزعة التاريخية الوطنية التي تعتمد على تفسير الظواهر بالنسبة إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه، رافضا التأويل المطلق، وهو الأمر الذي تعرض له في مقاله الذي عنوانه بـ "بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر"، حيث ينقل ما أوردته المصادر الفرنسية بشأن ربط هذه العلاقة، وأن الشاذلي القسنطيني استعمل من قبل السلطات الفرنسية ليقوم بدور المهدئ والمطمئن، والمعرف

بالحضارة الفرنسية، وبالمشاكل الفرنسية السياسية والاقتصادية التي منعت حتى ذلك الحين من إطلاق سراح الأمير عبد القادر<sup>(27)</sup>.

- تركيزه على أهمية تطوير مناهج الكتابة التاريخية وتبسيط أدائها، والتماشي والنمو الذي يميز تاريخ المجتمعات، وإلحاحه على المزيد من البحث وعدم انطواء التاريخ على نفسه، فالركود عكس التاريخ، لا يعبر عن الوفاء بقدر ما يعبر عن العجز على حد قول جاك لوكوف<sup>(28)</sup>.

- دفاعه عن سقوط التاريخ عند الجزائريين، والذين اعتبروه علم منعدم فيهم وساقط عندهم، حيث كان منسوباً إلى الأخبار والسير العامة، ومتصلاً بالأدب والجنون، ومستغرباً كيف أن آراء ابن خلدون في التاريخ كانت معروفة عندهم، مؤكداً على أنه علم كباقي العلوم، وليس أي عمل اعتباطي عشوائي، يسطر الأحداث كيفما اتفق، إنه علم له أصوله وقواعده ومناهجه<sup>(29)</sup>. وهو فن كما قال ابن خلدون لأنه يعيد بناء الماضي بطريقة نوعية متميزة، وأكثر من ذلك في أيامنا هذه، فهو مهنة وموهبة وصناعة على حد قول غي توبليه وجان تولار<sup>(30)</sup>.

- حرصه على كتابة التاريخ الوطني الجزائري، وليس إعادة كتابة التاريخ كما فهمه البعض، وهو الذي قال: "اكتبوا وإن لم تجدوا فبأظافركم"، وكان يؤكد دائماً على أن تاريخنا لم يكتب بعد، وإن كان قد دُون. وفي ذلك يضم صوته إلى صوت مؤرخ الأدباء السوريين مصطفى شاكر الذي يقول: "قد تكون مفردات هذا التاريخ مواده الأولية، عناصره المكونة موجودة قد دُونت، أما التاريخ نفسه فلم يكتب ببناء تاريخي متكامل حي، أرأيت لو جمعت لك من الحديد والإسمنت والرمل والحجارة أكواما، أتسمي ذلك بناءً؟ أتقبله كوخاً لا قصراً؟ تلك في اعتقادي هي الصورة....، تدوين التاريخ شيء وكتابته شيء آخر"<sup>(31)</sup>.

- الوضوح، الأمانة، الموضوعية، التجديد والتشويق، هي عناوين الكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله، الذي خدم الحقيقة واحترم القارئ. وهو الذي أحدث نقلة في أن المؤرخ لم يعد باحثاً عن الحقيقة للحقيقة، بل صارت كتابة التاريخ صناعة وفنا.

الخاتمة: وختاماً نقول إنه لولا قدرة الشيخ أبو القاسم سعد الله على الكتابة التاريخية، وعلمه الواسع وإطلاعه على العديد من الوثائق والمخطوطات، لما تمكن من تقديم هذا الجهد الكبير من الأعمال، ولما تمكن من مسaire الكتابة طيلة هذه المدة.

إن الشيخ أبو القاسم سعد الله يؤمن من صناعة ذهنية وموضوعية أن تاريخ الجزائر هو تاريخ واحد عبر العصور، وأن وحدة الأمة الجزائرية في التفاعلات السياسية والتاريخية جزء من تاريخ الأمة العربية الإسلامية الواحدة. صحيح أن الشيخ أبو القاسم سعد الله يعتز بتاريخ الأمة العربية الإسلامية، لكنه يعتز أكثر بعروبة وإسلام الجزائر ويسجلها التاريخي، وقد كسب من خلال هذه النظرة سمعة العديد من المؤرخين والعلماء والمفكرين، خاصة ممن يؤمنون بقناعة لما يدعو إليه الشيخ أبو القاسم سعد الله.

#### هوامش:

- 1- ناصر الدين سعيد وي، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2008، ص: 16-17.
- 2- أبو القاسم سعد الله، السيرة الذاتية والعلمية للكاتب أبو القاسم سعد الله، ص-ب، 37، الأبيار، مدينة الجزائر، الجزائر، 2007/05/06.
- 3- إضافة إلى اللغة العربية، يتقن الشيخ أبو القاسم سعد الله اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الألمانية، تخصص في التاريخ الحديث والمعاصر للجزائر والمغرب العربي والأوربي.
- 4- هو مصطفى شاكور، المؤرخ والأديب والباحث ولد بدمشق (سوريا) عام 1921م، حصل على الإجازة في التاريخ من جامعة القاهرة عام 1945م، شارك في تأسيس رابطة الكتاب العرب، تقلد عدة مناصب دبلوماسية وحكومية منها وزيرا للإعلام حتى سنة 1966م، له أكثر من أربعين كتابا أهمها: التاريخ العربي والمؤرخون في أربعة أجزاء وعشرات الأبحاث والمقالات. ينظر: شاكور مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ج1، ص: 07.
- 5- كار إدوار، ما هو التاريخ، ترجمة: ماهر كيالي وبيار عقل، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص: 22.
- 6- نفسه، ص: 32. --- 7- ناصر الدين سعيد وي، أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة للنشر، الجزائر، 2000، ص: 34.
- 8- أبو القاسم سعد الله، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته (لسان المقال)، مجلة الأصالة، ع38، السنة الخامسة، شوال 1396هـ/أكتوبر 1976م، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص: 02-24.
- 9- أبو القاسم سعد الله، مؤلفات المشرفي المعاصر للأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، ع75، السنة الثالثة عشرة، رجب، شعبان 1403هـ/ماي، جوان 1983م، تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، ص: 75-86.
- 10- أبو القاسم سعد الله، بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر، مجلة الأصالة، ع12، السنة الثامنة، شوال، ذو القعدة 1492هـ/نوفمبر، ديسمبر 1972م، تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ص: 109-119.
- 11- هاب حسام، نظرة في إشكالية المعرفة التاريخية، مجلة رهانات، ع26-27، تصدر عن مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية، 2013، ص: 27-31.
- 12- يذكر محمد أركون أن قيمة أية فكرة وقومًا تقاس بالمفهومات التي تخلقها، أو التي تعيد قولية محتواها، أو استعماها، وأن عملية التكامل بين الحضارات قد سبق إليها القرآن والمأثور من السنة... وأقوال المؤرخين كابن خلدون. ينظر: محمد أركون الإسلام والتاريخية والتقدم، محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، المجلد الخامس، 12-21 رجب 1396هـ/10-19 يوليو 1976م، منشورات وزارة الشؤون الدينية، عناية، الجزائر، ص: 64-66.
- 13- أبو القاسم سعد الله، من آثار ابن العنابي، مجلة الأصالة، ع39-40، السنة الخامسة، ذو القعدة- ذو الحجة 1396هـ/نوفمبر- ديسمبر 1976م، الجزائر، ص: 90-100.
- 14- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية، تقدم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص: 117.
- 15- تقع القصيدة في أكثر من خمسين بيتا، وهي عبارة عن مقامة من المقامات العلامة الأديب محمد بن ميمون، والتي بلغت ستة عشرة مقامة. ينظر: محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر الخمية، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص: 205-209.

- 16- أبو القاسم سعد الله، قصيدة خطية سياسية لابن ميمون الجزائري، مجلة الثقافة، ع15، السنة الثالثة، جمادى الأولى، جمادى الثانية 1393هـ / جوان، جويلية 1973م، الجزائر، 1973، ص: 37-42.
- 17- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 213-216.
- 18- أبو القاسم سعد الله، قصيدة خطية سياسية لابن ميمون الجزائري، المرجع السابق، ص: 37-42.
- 19- نفسه، ص: 37-42.
- 20- أبو القاسم سعد الله، دفتر محكمة المدينة أواخر العهد العثماني-1821-1839، مجلة الثقافة، ع81، السنة الرابعة عشرة، شعبان، رمضان 1404هـ / ماي، جوان 1984م، تصدرها وزارة الثقافة، الجزائر، ص: 142.
- 21- نفسه، ص: 143-144.
- 22- أبو القاسم سعد الله، عبد الرزاق بن حمادوش... المرجع السابق، ص: 02-24.
- 23- عن رحلات العرب في البلاد العربية، ينظر: منصور الحازمي، رحلات العرب في جزيرة العرب والبلاد العربية، مجلة الدارة، ع3، السنة الخامسة، ربيع الآخر 1400هـ / مارس 1980م، ص: 30.
- 24- هاب حسام، نظرة في إشكالية المعرفة التاريخية، المرجع السابق، ص: 27-31.
- 25- كار إدوار، المرجع السابق، ص: 22.
- 26- كارل يوبر، عقم المذهب التاريخي - دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية - ترجمة: عبد الحميد صبره، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، 1959، ص: 51.
- 27- أبو القاسم سعد الله، بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص: 110.
- 28- جاك لوكوف، التاريخ الجديد، ترجمة: محمد الطاهر المنصوري، مراجعة: عبد الحميد هنية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007، ص: 42.
- 29- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ج2، ص: 332.
- 30- غي توبليه وجان تولار، صناعة التاريخ، ترجمة وتقديم: عادل العوا، ط1، دار الكلمة للنشر والطباعة، دمشق، 1999، ص: 08.
- 31- مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ج1، ص: من المقدمة.

*Resume: All along its history Algeria has known a great deal of work in order to record and highlight faithfully its remarkable historical events, mainly the post-independent period when history became prominent in that it expresses the Algerian popular lore, nestles the national identity that refuses but to keep strongly attached to its dear past.*

*The Algerian historical records and writings faced trends of damages, falsifications, humiliations made by foreign writers and historians mainly French, even by some Algerians accused of being narrow-minded, rather subjective and whose works lack methodology.*

*It is to be reminded that the topic of any historical recording or writing necessitates a great importance, because this work forms a great part of the cultural and civilisational history of the Algerian nation. Besides the reality of the independent Algerian historical studies imposes on the researches a clear show of what really happened in history, be it studies or researches pre and post-independence, in order to determine its trajectory and to know its particularities.*

*In this respect, I am discussing in this dissertation the historical side in the conceptual thinking of the Algerian history according to Abi Al Kasim Saad Allah, centring on the methodological side in exhibiting the cultural, ideological and civilizational preoccupations through his dissertations; Al Assala and thaqafa magazines.*